الدرع الصاروخى الأمريكى .. عود على بدء

(مجلة الشروق، دار الخليج، الشارقة، ١٢ أغسطس ٢٠١٨)

د. نـورهان الشيـخ

مثلـت منطقـة شـرق أوروبـا دومـا أهميـة خاصـة بالنسـبة لموسـكو، وكانـت بولنـدا وتشيكوسلوفاكيا على وجه الخصوص هى البوابة التى عبر من خلالها الغزاة إلى روسيا على مر العصور، فمنها بدأ عدوان نابليون مطلع القرن التاسع عشر، وهتلر فى أربعينات القرن العشرين، وهـى الحـروب التـى هـزت وجـدان روسـيا وأودت بحيـاة الملايـين مـن أبنائهـا. ورغـم التقـدم فـى التكنولوجيا العسكرية ووجود الصواريخ عابرة القارات، لم تفقد أوربا الشرقية أهميتها كمنطقة عازلة بـين روسـيا السـوفيتية والغـرب، وسـاعدت تطـورات الحـرب العالميـة الثانيـة علـى هيمنـة الاتحـاد السـوفيتى علـى المنطقـة، وقـام بـدعم نفـوذه مـن خـلال حلـف وارسـو الـذى أنشـئ فـى ١٤ مـايو ١٩٥٥، وضم فى عضويته كل من بلغاريا، ورومانيا، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، وبولندا، وألمانيا الشرقية إلى جانب الاتحاد السوفيتى.

وعقب تفكك الاتحاد السوفيتى اتجهت دول أوربا الشرقية غرباً، وأصبحت عضواً فى حلف شمال الأطلنطى والاتحاد الأوروبى، فقد تم قبول عضوية كل من بولندا والتشيك والمجر فى حلف شمال الأطلسى (الناتو) فى عام ١٩٩٩، وفى الاتحاد الأوربى عام ٢٠٠٤، وكل من بلغاريا ورومانيا فى عام ٢٠٠٤ وعام ٢٠٠٧ على التوالى. أى إنها أصبحت ضمن المنظومة الأوربية اقتصادياً والأمريكية أمنياً، وأى محاولة من جانب روسيا لإستعادة الهيمنة المباشرة عليها يعنى الصدام المباشر ليس فقط مع هذه الدول، ولكن مع الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة أيضاً، وهو ما لا يمكن تصور أن تقدم عليه روسيا. ولم يعد فى الألويات الروسية التعامل مع هذه الدول من منظور إقليمى ومن منطلق سياسة موحدة لها جميعاً، وإنما يتم التعامل مع كل دولة إنطلاقاً من محددات العلاقات الثنائية معها، والعلاقات الروسية الأوروبية عامة. وكانت روسيا تأمل فى أن يكون مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى هو المظلة الأساسية للأمن الأوروبى فى فترة ما بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وإختفاء حلف وارسو، ومن ثم ينتفى الهدف من بقاء الناتو ويتم حل هذا الأخير، إلا أن الولايات المتحدة كانت، على العكس تماماً، تسعى إلى تفعيل الحلف وإسناد مهام جديدة له، ودعم وتعزيز وجوده العسكرى فى شرق أوروبا.

وكان انسحاب الولايات المتحدة فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١، من جانب واحد، من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ الموقعة مع الاتحاد السوفيتى السابق، الخطوة الأولى نحو تقويض سياسات الحد من التسلح ومن ثم الوفاق الروسى الأمريكى الذى بنى عليها، الأمر الذى دعمته قضية الدرع المضاد للصوايخ. وهى الأزمة التى فجرتها خطة الولايات المتحدة التى أعلنتها فى يناير ٢٠٠٧ وتتضمن إقامة المنطقتين الأولى والثانية من الدرع على أراضيها في ألاسكا وكاليفورنيا، وبناء المنطقة الثالثة للمنظومة في أوروبا الشرقية من خلال إقامة نظام رادار في جمهورية التشيك ونشر عشرة صواريخ اعتراضية في بولندا. ويقوم الدرع الصاروخي على نظام الإنذار المبكر، وهو مصمم لاعتراض الصواريخ العابرة للقارات، حيث يقوم الصاروخ الاعتراضي باعتراض الصاروخ العابر وتفجيره في الفضاء قبل وصوله إلى هدفه على الأرض.

وفى أول رد فعل، وبداية مواجهة روسية أمريكية مستمرة على مدى العقد الماضى حول المشروع، وجه الرئيس الروسى فلاديمير بوتين انتقادات حادة للسياسة الأمريكية خلال مؤتمر ميونيخ للسياسات الأمنية فى ١٠ فبراير ٢٠٠٧، وانتقدها "لاستخدامها المفرط للقوة الذى يكاد يكون غير خاضع للسيطرة فى العلاقات الدولية .. وتجاوزها حدودها الوطنية فى كل اتجاه. وحذر بوتين من أن قيادة الولايات المتحدة " لعالم احادى القطب" غير مقبول، وأدى الى المزيد من الحروب والصراعات فى العالم. وقال بوتين أن "بلاده تمتلك الحق فى السؤال عما يهدف اليه الناتو حين يوسع قواعده وبنيته التحتية باتجاه موسكو، فى حين أن التهديد الحقيقى العالمى يشكله الارهاب وأسلحة الدمار الشامل".

ولم تتوقف الانتقادات الروسية الشديدة للمشروع الأمريكى، واتهم بوتين الولايات المتحدة بأنها "تستهتر في اللجوء إلى القوة"، وأن هذا النظام "موجه ضد شئ غير موجود، وأنه سيزيد من إمكانية نشوب صراع نووي، وسيؤدى إلى تدمير التوازن الاستراتيجي في العالم"، وإنه "إذا أصرت الولايات المتحدة على نشر أنظمة الدفاع الصاروخي في أوربا، فقد تكون أوربا هدفا للأسلحة الروسية مرة أخرى ولن تتحمل روسيا أية مسؤولية عن ذلك". وأن "بولندا ورومانيا قد تجدان نفسيهما في مرمى الصواريخ الروسية، لأنهما تستضيفان عناصر من نظام الدرع الصاروخي الأمريكي الذي ترى فيه موسكو تهديداً لأمنها."

ورغم إعلان الرئيس أوباما في ١٧ سبتمبر ٢٠٠٩ عن تراجع الولايات المتحدة عن مشروع الدرع الأمريكى المضاد للصواريخ بالصورة الأولية التى تم طرحها، وأن الولايات المتحدة أعادت النظر في خططها الرامية الى نشر عناصر من منظومة الدفاع المضاد للصواريخ في أوروبا الشرقية، وأن بلاده ستبني منظومة درع صاروخية أكثر تطورا وأقل تكلفة، مؤكداً على أن

الولايات المتحدة ستراعي مصالح روسيا في خططها الجديدة. إلا إن المشروع تم استئنافه وإمتد ليشمل رومانيا التى تم تشغيل النظام الصاروخي فيها فى ١٢ مايو ٢٠١٦.

وتؤكد واشنطن أن الدرع موجه ضد إيران وكوريا الشمالية، وإنه لا يمثل تهديداً لروسيا، كما أكد وزير الخارجية البولندى فيتولد فاشيكوفسكي، إن "الدرع الصاروخية الأمريكية في بولندا لا تشكل تهديداً لأمن روسيا." وأن "الرئيس بوتين يجب أن يعلم جيداً أن النظام الدفاعي المضاد للصواريخ في بولندا لا علاقة له بأمن روسيا. هذا النظام للدفاع عن أوروبا من هجوم صاروخي من الشرق الأوسط". وأضاف "ومع ذلك فإن الوجود العسكري في بولندا للقوات الأمريكية وقوات حلف شمال الأطلسي متعددة الجنسيات يأتي استجابة لسلوك عدواني بالفعل من جانب السلطات الروسية يثير فزعنا، وسيكون لهذا الوجود طبيعة دفاعية لا تشكل تهديداً لروسيا."

فى حين ترى موسكو أن نشر الدرع الأمريكى على الحدود الروسية فى بولندا والتشيك ورومانيا يستهدفها، ويمكن تفهم الإنزعاج الروسى فى ضوء مجموعة من الاعتبارات. أولها، يتعلق بمكانة روسيا ورغبة القيادة الروسية فى التأكيد على كونها لاعبا دوليا لايمكن تجاوزه، أو اختراق دائرة أمنه القومى دون مشاركة فعالة من جانبه. وكانت روسيا قد قدمت عرضاً للجانب الأمريكى يقضي باستخدام موقع رادار روسي في أذربيجان كبديل للنظام المزمع إنشاءه فى التشيك، واستعمال قاعدة رادارية أخرى قيد الانشاء في منطقة كراسنودار جنوب روسيا، حتى تضمن روسيا إنه ليس موجهاً ضدها، وحتى لا تنفرد الولايات المتحدة بتنفيذ المشروع وتأكيد هيمنتها ونفوذها فى منطقة مازالت روسيا تعتبرها بوابتها الغربية.

ثانيها، عدم توقيع دول الناتو على الاتفاقية المعدلة لمعاهدة القوات التقليدية في أوربا التى وافقت عليها القمة السادسة لمنظمة الأمن والتعاون الأوروبي بأسطنبول عام ١٩٩٩، والتى تستوعب من وجهة النظر الروسية المستجدات التى أدى إليها انتهاء الحرب الباردة. وقد صدقت روسيا على المعاهدة المعدلة عام ٢٠٠٤، كما صدقت عليها بيلاروسيا وكازاخستان وأوكرانيا، ورفضت دول الناتو القيام بذلك وأصرت على وجوب تنفيذ روسيا لما يطلق عليه "التزامات أسطنبول" أولاً وهى سحب القوات الروسية من مولدوفا وجورجيا المجاورتين لروسيا رغم الرفض الروسى التام لذلك.

ثالثها، أن المشروع الأمريكى، من وجهة النظر الروسية، يمثل تهديداً مباشراً لأمنها القومى ويهدف إلى حرمانها من القدرة على توجية الضربة الثانية الرادعة للولايات المتحدة فى حال قيام الأخيرة بالهجوم على روسيا، ومن ثم يترك روسيا دون قوة ردع حقيقة تضمن أمنها وسلامة شعبها. لإنه في حال إطلاق تلك الصواريخ من الأراضي البولندية لن تتوفر أمام الدفاعات الروسية إلا دقيقتان أو ثلاث دقائق لإخطار قيادة البلاد مما يعني صعوبة اتخاذ أية خطوات

لمواجهة تلك الصواريخ. كما إن الرادار الذي قامت الولايات المتحدة بنصبه في التشيك سوف يمكنها من مراقبة النشاط الجوي والفضائي الروسي في الشطر الأوروبي من روسيا، وسيمثل عيني وأذني الولايات المتحدة لمراقبة روسيا. ويعزز من مخاوف روسيا التوتر العام فى العلاقات الروسية الأمريكية، وتعزيز التواجد العسكرى للناتو على الحدود مع روسيا من خلال إقامة بنية عسكرية أطلق عليها "رأس الرمح" لمواجهة ما يعتبره الحلف تهديداً روسياً، تتضمن قوات بحرية وجوية وبرية ووحدات مهمات خاصة بإجمالي ٣٠-٤٠ ألف جندى تندرج تحت ست مقرات قيادة في بلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا ورومانيا. هذا إلى جانب ما يسمى بقوات " المبادرة" وهى قوات تدخل سريع تابعة للحلف قادرة على الانتشار والعمل خلال ٤٨ ساعة عند الحاجة وتضم حوالي ٥ آلاف عسكري. وأربعة كتائب بإجمالى ٤٠٠٠ جندى يتم نشرها في بولندا وجمهوريات البلطيق الثلاث (ليتوانيا ولاتفيا واستونيا) التى كانت جزء من الاتحاد السوفيتى وانضمت إلى الناتو عام ٢٠٠٤، "للتصدي لسلوك روسيا العدواني". وهو ما تعتبره روسيا خرقاً للوثيقة "التأسيسية روسيا – الناتو" التى تم إبرامها في باريس عام ١٩٩٧، وتنص على أن لا يقوم الحلف بالدفاع الجماعي عن أعضائه من خلال النشر المستمر لقواته القتالية في الدول المنضمة حديثاً له.

رابعها، أن وكالة الدفاع المضاد للصواريخ الأمريكية أعدت خطة لزيادة عدد السفن الحربية المزودة بصواريخ الاعتراض لتعزيز الأمن الأوروبى، تتضمن وضع منظومات "Aegis" على السفن الحربية الموجودة وكذلك على سفن جديدة ستمثل هذه المنظومة جزءا متكاملا منها. وكانت سفنة حربية أمريكية من تصميم جديد أطلق عليها اسم "جون فلين"، تحمل أحدث نسخة من منظومة "Aegis" قد أبحرت لأول مرة في يوليو ٢٠١٧. وتتخوف موسكو من إمكانية نقل هذه السفن إلى بحار البلطيق والشمال والأسود بسهولة لتقف قبالة السواحل الروسية. وتستطيع هذه المنظومة رصد ومتابعة الصواريخ الباليستية مهما كان مداها، إذ يتم ارسال البيانات حول مسار الصاروخ إلى المنظومة الإلكترونية المشتركة للدفاع الصاروخي الأمريكي. وتستخدم هذه المعلومات لاحقا من قبل منظومات الاعتراض في قاعدة فورت جريلي بولاية ألاسكا، وفي قاعدة وندبيرج بولاية كاليفرونيا، وكذلك إلى منشآت المكونات البرية للدرع الصاروخية وإلى السفن الحربية التي تحمل مكونات من هذا الدرع. وبالإضافة إلى قدرتها على رصد الصواريخ الباليستية، تطلق منظمة "Aegis" صواريخ اعتراض من طراز "SM-3".

خامسها، تعتبر روسيا أن قضية الدرع الأمريكى المضاد للصواريخ قد دخلت منحنى جديد بنشر منظومات "ثاد" الأمريكية فى كوريا الجنوبية واليابان، وذلك فى إطار المواجهة بين واشنطن وكوريا الشمالية، ليكتمل بذلك مخطط الدرع فى تطويق روسيا شرقاً وغرباً، وفى ذرع

شوكة فى خصر الصين الشريك الاستراتيجى لروسيا. وتم مؤخرا نشر أربع منصات إطلاق لنظام "ثاد" الأمريكي في قاعدة عسكرية في سيونجو على بعد ٣٠٠ كيلومتر جنوبي العاصمة الكورية الجنوبية سيئول، لتضاف إلى منصات إطلاق أخرى تم تثبيتها بالفعل في مارس الماضى.

فى ضوء ما تقدم، اتخذت روسيا على مدى العقد المنصرم سلسلة من الإجراءات زادت المواجهة مع واشنطن حدة. ففى أبريل ٢٠٠٧، وعقب إعلان واشنطن عن مشروع الدرع، أعلن بوتين في خطابه السنوي حول حالة الأمة عدم التزام روسيا بالاتفاقية الخاصة بمراقبة القوات المسلحة التقليدية في أوروبا. وبرر بوتين ذلك بأن الناتو لم يُصدق حتى تاريخه على اتفاقية عام ١٩٩٩ الخاصة بهذه القوات، مشيرا أيضا إلى أن الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي "تستغل الوضع لتوسيع تفوقها العسكري" وقال في هذا الصدد: "شركاؤنا لا يتصرفون بشكل سليم".

على صعيد أخر، قامت روسيا بنشر منظومات "اسكندر" الصاروخية في مقاطعة كالينينجراد الروسية، التى تمثل جيب استراتيجى فى العمق الأوروبى، لتحييد عناصر المنظومة الأمريكية المضادة للصواريخ في أوروبا، وكأحد التدابير التي تتخذها روسيا ردا على نشر عناصر المنظومة الأمريكية في التشيك وبولندا. وفى ١٤ يوليو الماضى نشرت القوات الروسية منظومة الدفاع الصاروخي " إس٣٠٠ " PM2 المحدثة في كالينينجراد.

كما بدأت روسيا فى تطوير منظوماتها الاستراتيجية القادرة على إختراق الدرع الأمريكى، ومنها صاروخ "سارمات" الروسي الثقيل الذى سيتم البدء فى انتاجه على دفعات بحلول عام ٢٠١٨، وسيحل محل صاروخ "آر-٣٦ إم ٢ "فويفودا أو الشيطان، الذي يعد صاروخا باليستيا هجوميا رئيسيا في قوات الصواريخ الاستراتيجية الروسية. ويتميز "سارمات" بقدرته على تجاوز أية درع صاروخية عصرية ومستقبلية، لتحليقه بسرعة فرط صوتية، أي تفوق سرعة الصوت بمقدار ٤-٧ أضعاف، ومن ثم فهو قادر على إحباط كل المخططات الأمريكية الخاصة بالدرع الصاروخية من وجهة النظر الروسية.

كذلك بدأت روسيا فى إنشاء درع صاروخية تغطي جميع أراضيها حيث أن الدرع الحالية "أ-١٣٥" تحمي موسكو وضواحيها فقط. ويفترض أن تشمل الدرع الصاروخية الجديدة موسكو والمنطقة الصناعية المركزية بحلول عام ٢٠٢٠، ثم تمتد لتشمل كامل الأراضى الروسية بحلول عام ٢٠٢٥. وستتكون من بضعة منظومات، وهي: الدرع الصاروخية الخاصة بالاعتراض البعيد، ومنظومات الدفاع الجوي متوسطة المدى، والمنظومات المطورة للاعتراض القريب، ورادارات الإنذار عن الهجوم الصاروخي، وستشكل منظومة "أس-٥٠٠"، وهى الأحدث، المضادة للطائرات والصواريخ أساس الدرع الصاروخية الروسية القومية.

وعلى صعيد الجبهة الشرقية من المواجهة الروسية الأمريكية بشأن الدرع، وفى رد فعل روسى يعكس مدى قلق موسكو من إمتداد الدرع الصاروخى الأمريكى إلى كوريا الجنوبية واليابان، أعلن سيرجي ريابكوف، نائب وزير الخارجية الروسي، أن موسكو قد تكون مضطرة لاتخاذ إجراءات جوابية بطابع عسكري لخلق توازن مع نشر أنظمة الصواريخ الأمريكية "ثاد"، باعتبارها نظام اعتراض للرؤوس الحاملة خارج الغلاف الجوي على مسار تصاعدي، يمكن دمجه بسهولة في نظام الدفاع الصاروخي بعيد المدى، ومن ثم فإنه يمكن أن يصبح جزءا من نظام الدفاع الصاروخي الأمريكي المتكامل. وقامت روسيا، وفق ما نشرته الصحيفة الرسمية لأسطول المحيط الهادئ الروسي، "بويفايا فاختا"، يوم ٢٢ نوفمبر ٢٠١٦، بنشر منظومات صاروخية فى أثنين من جزر الكوريل المتنازع عليها مع اليابان وهى أنظمة "بال" الصاروخية في جزيرة كوناشير وأنظمة "باستيون" في جزيرة إيتوروب.

لقد كانت روسيا تأمل فى أن يعيد الرئيس دونالد ترامب النظر فى الدرع الأمريكى، إلا إن الأخير أكد عزمه على إعادة بناء القوات المسلحة الأمريكية التى وصفها بأنه "منهكة"، و"إنشاء نظام الدرع الصاروخي على أساس أحدث التقنيات"، وقد بدأ بالفعل العمل على تصميم مكونات جديدة في هذه المنظومة تمهيدا لنشرها مستقبلا في الفضاء، فى إحياء لبرنامج "مبادرة الدفاع الاستراتيجي" أو ما عُرف بـ "حرب النجوم" الذي دشنه الرئيس رونالد ريجان عام ١٩٨٣ وتم تجميده منتصف التسعينات، بهدف استخدام النظم الفضائية لحماية الولايات المتحدة من الهجوم المفترض بالصواريخ الباليستية النووية الاستراتيجية، الأمر الذى يشير إلى استمرار قضية الدرع الصاروخى كأحد أبرز نقاط الخلاف الروسى الأمريكى مستقبلاً.